المعرف الرقمي DOI
https://doi.org/10.31430/SQYD7410

نيكولاس أونوف | Nicholas Onuf*

استهلال
ما الذي ينبغي أن نصنعه من مقالة "الفوضى هي ما تصنعه الدول منها"؟

Foreword
What should we Make of "Anarchy is what States Make of it"?

نشر ألكسندر ونت مقالته "الفوضى هي ما تصنعه الدول منها: سياسة القوة بوصفها بناءً اجتماعيًا" قبل نحو ثلاثين عامًا. وحينئذ، لم يكن عمر الحركة البنائية في حقل العلاقات الدولية قد تجاوز بضع سنوات. لدواعٍ عملية، يحدد ونت أنسب تأريخٍ لبداية الحركة بعام 1986[1]، حين نشر فريدريك كراتوشفيل وجون راغي دراستهما في دورية **التنظيم الدولي**، بعنوان "التنظيم الدولي: تطوّرات حقل قائم على الدولة" International Organization: A State of the Art on an Art of the State. أما مقالة ونت بعنوان "مشكلة الفاعل - البنية في نظرية العلاقات الدولية" ، فقد نُشرت عام 1987. وكان ونت قد قدّم نسخة أولى عن هذه المقالة في ندوة علمية عُقدت عام 1986، ولم يزل بعدُ طالبًا في درجة الدكتوراه؛ ولاحظتُ خلال هذه المناسبة أن أهمية المقالة بدت للعيان وسط الجمهور داخل القاعة كلّها. وبحلول عام 1989، "جرت مياه كثيرة" سمحت بأن تصدر في الموضوع كتبٌ أكثر إسهابًا؛ منها كتاب كراتوشفيل، **القواعد والمعايير والقرارات** *Rules, Norms, and Decisions*، وكتابي **عالم من صنعنا** *World of Our Making*؛ وهي كتب استغرق إعدادها سنوات من الجهد. وفي مقالة "الفوضى هي ما تصنعه الدول منها"[2]، استخدم ونت مصطلح البنائية نقلًا عن كتابي المذكور آنفًا[3].

بهذا اللفظ، كشف ونت عن رفضه مصطلح **تأمُّلي** *Reflectivist*، الذي اعتمده روبرت كيوهان في وصف الباحثين الذين "يشدّدون على أثر الذاتية الإنسانية في أعمالهم" من خلال السلوك الهادف Purposive Behavior والمؤسسات الدولية[4]، وذلك في مقابل الباحثين الذين يعتمدون "العقلانية الموضوعية" في كتاباتهم. ربما أظهر كيوهان أنه يتعامل مع المنظورَين على قدم المساواة، لكنّ القرّاء يدركون جيدًا تفضيلاته التي يضمرها. لذلك حين استبدل ونت وصف التأملية بكلمة "البنائية"، فإنما ألقى الضوء على الامتداد الواسع للمادة النظرية التي قلل دهاء كيوهان من شأنها متعمِّدًا.

وفي إحصاء المقاربات النظرية الذي قدّمه ونت، اعتبر أنّ "الباحثين في التقاليد الإدراكية، وما بعد البنيوية، ومنظّري نسوية ما بعد الحداثة، ونسوية الموقع الاجتماعي Standpoint Feminists، ومنظّري القواعد Rule Theorists، وأنصار البنيانية

* أستاذ فخري، جامعة فلوريدا الدولية، الولايات المتحدة الأميركية.
Professor Emeritus, Florida International University, United States of America.
Email: onufn@fiu.edu

1 Alexender Wendt, "Anarchy is What States Make of it: The Social Construction of Power Politics," *International Organization*, vol. 46, no. 2 (1992), p. 393;
وينظر ترجمة المقال إلى اللغة العربية في هذا العدد، في: ألكسندر ونت، "الفوضى هي ما تصنعه الدول منها: السياسة الدولية بوصفها بناءً اجتماعيًا"، ترجمة سارة إسماعيل، **سياسات عربية**، مج 13، العدد 73 (آذار/ مارس 2025)، ص 123-152.

2 Ibid.

3 Nicholas Greenwood Onuf, *World of Our Making: Rules and Rule in Social Theory and International Relations* (Columbia: University of South Carolina Press, 1989), p. 1.

4 Robert O. Keohane, "International Institutions: Two Approaches," *International Studies Quarterly*, vol. 32, no. 4 (1988), p. 379.

Structurationists يعدُّون جميعهم بنائيين"[5]. وعلى الرغم من أن ونت عدَّنا، أنا وكراتوتشفيل، من "منظّري القواعد"، فإنه لم يقدّم تلميحًا يُذكر عن القواعد التي اعتمدها لتبرير تصنيفه إيَّانا في خانة البنائيين. وفي حين أن قسمًا من الباحثين الإدراكيين وما بعد البنيويين، ونسويِّي ما بعد الحداثة، ونسويِّي الموقع الاجتماعي، كانت لديهم في الأصل هويات تنفي الحاجة إلى تسميتهم بالبنائيين، فإنه لم يتبقَّ من تلك المجموعة سوى منظِّري "البنيانية".

في مقالة "مشكلة الفاعل - البنية"، طوّر ونت وجهة نظر بنيانية استعنتُ بها في كتابي أيضًا. ويعود الفضل في سكّ مصطلح البنيانية إلى أنتوني غيدنز؛ ففي كتابه المهم، **تشكيل المجتمع** *The Constitution of Society*، **يعرّف التشكيل** بوصفه عملية لا محض شرط مرادف للبنية أو قريب منها. ولهذه العملية نتائج بنيوية؛ فمنها ينسِل لفظُ البنيانية (وهي مصطلح جديد تمامًا)، أو البناء Construction (وهو مصطلح مألوف لكنه يحمل العديد من السمات المجازية). فيكون البناء الاجتماعي هو عملية تشكيلٍ متشاركة Co-Constitutive تعمل في الاتجاهين: فحين يشكّل الفاعل Agent العالم على صورته، فإن العالم المتشكّل على ذلك النحو إنما يسِم الفاعل بفاعليته، أي قدرته على الفعل.

لِننظُرْ في التوصيف الدقيق الذي يقدّمه ونت في هذا المقطع:

> إنّ المقاربة البنيانية [...] بمنحها الفاعلين والبنى وجودًا أنطولوجيًا متساويًا إنما تحاول أن تتجنب ما أعدُّه عواقبَ سلبية للفردانية والبنيوية معًا. ومشروع البنيانية ليس محض توليف بلا معنى بين "أقصى ممكنٍ في المقاربتين"؛ بل يقوم على تصوّرٍ مفهومي خاص جدًا للعلاقة "فاعل - بنية". يجبرنا هذا التصور المفهومي على إعادة التفكير في الخصائص الأساسية للفاعل (الدولة) وبنى النظام. كما يسمح لنا، في المقابل، باستخدام الفاعلين والبنى لشرح بعض الخصائص الرئيسة لدى كلٍّ منهما بوصفها تأثيرات من كل واحد منهما تجاه الآخر، وبرؤية الفاعلين والبنى على أنها كيانات "يحدّد بعضها بعضًا" أو "يشكل بعضها بعضًا بصورة متبادلة"[6].

وكان في إمكان ونت، في ذلك الوقت، أن يطلق على "مشروع البنيانية" اسم البنائية، فيتبع بذلك طريق العديد من المنظرين الاجتماعيين الآخرين ممن لديهم اهتمامات مماثلة.

وبعد خمس سنوات استوعب فيها ونت المزيد من النظريات الاجتماعية، وسّع إطاره المرجعي بطريقة لافتة للانتباه حين كتب مقالته "الفوضى هي ما تصنعه الدول منها". ولنقتبسْ أيضًا من هذه الدراسة المقطع التالي (مع حذف الحاشية الواردة فيه)[7]:

> هدفي في هذه الدراسة هو بناء جسرٍ بين هذَين التقليدَين البحثيَّين (ومن ثمّ، بين النقاشات الواقعية - الليبرالية والعقلانية - التأملية)، وذلك من خلال تطوير حجةٍ بنائية مستمدة من البنيانية وسوسيولوجيا التفاعل الرمزي، نيابةً عن الادعاء الليبرالي القائل إن المؤسسات الدولية يمكنها تحويل هويات الدولة ومصالحها.

وسوسيولوجيا التفاعل الرمزي هي فرع غنيّ ومتنوع من النظرية الاجتماعية يمتد تاريخه إلى عقود عديدة مضت. وفي هذا الصدد، اعتمد ونت على كتابين في قائمة مصادره، هما كتاب جورج هربرت ميد، **العقل والذات والمجتمع** *Mind, Self, and Society*، وكتاب بيتر برغر وتوماس لوكمان، **البناء الاجتماعي للواقع** *The Social Construction of Reality*. يشدّد هذان الكتابان على البعد الذاتي للفاعلية الإنسانية، بل ذهب بيرغر ولوكمان إلى أبعد من ذلك حين وضعا تصورًا للطريقة التي يشكّل بها الفرد، بوصفه ذاتًا، والمجتمع، والذات والموضوع، أحدهما الآخر، عبر تشكيل الشرط الأنطولوجي الذي نسميه جزافًا **الواقع**.

صار التفاعل الرمزي منبعًا سخيًا بالنسبة إلى ونت يغرف منه كيفما يشاء؛ لكنه منبع انطوى على خطر كبير، على الأقل من وجهة نظر ونت الخاصة. ففي مقالة "مشكلة الفاعل - البنية"، ذكر ونت الذاتية في عجالة[8] من دون أن يأتي على ذكر البينذاتية على الإطلاق؛ أما بعد خمس سنوات، فقد احتلت "المعرفة البينذاتية" (أو "الفهوم والتوقعات البينذاتية") مكانةً مركزيةً في بنائه المشروع الموسَّع الذي أطلق عليه اسم البنائية. وقد أعلن، في شرحه ما كان يقصده بالمعرفة البينذاتية، عن مبدأين:

5 Wendt, p. 393.

6 Alexander E. Wendt, "The Agent-Structure Problem in International Relations Theory," *International Organization*, vol. 41, no. 3 (1987), p. 339.
وينظر ترجمة المقال إلى اللغة العربية، في: ألكسندر ونت، "مشكلة الفاعل - البنية في نظرية العلاقات الدولية"، ترجمة أحمد قاسم حسين، **سياسات عربية**، مج 13، العدد 72 (كانون الثاني/ يناير 2025)، ص 103-130.

7 Wendt, "Anarchy is What States Make of It," p. 394;
وينظر الترجمة العربية في هذا العدد، في: ونت، "الفوضى هي ما تصنعه الدول منها"، ص 123-152.

8 Wendt, "The Agent-Structure Problem," p. 359.

- يتمثل أحد المبادئ الأساسية للنظرية الاجتماعية البنائية في أنّ البشر يتصرفون تجاه الأشياء، بمن فيهم الفاعلون الآخرون، بناءً على المعاني التي تحملها تلك الأشياء بالنسبة إليهم[9].
- المبدأ الثاني للبنائية [هو:] تنشأ المعاني ويجري من خلالها تنظيم الأفعال من التفاعل نفسه[10].

وتغترف الإحالات والحواشي التي يدعم بها ونت رأيه من المقولات الرئيسة التي تزخر بها نزعة التفاعل الرمزي. وكذلك الحال مع مصطلح **"معاني"** *Meanings*، الذي يبدو أنه يربط بين المبدأين الآنفَي الذكر ضمن مقولة متماسكة إطارها المرجعي بنائي بوضوح. وتكشف نظرة متفحصة إلى ذلك عن مكامن للخطر. فبينما يشير المبدأ الأول إلى أن المعنى **ذاتي على الدوام**، يشير الثاني إلى أنّ **المعاني** تتخذ طابعًا **موضوعيًا** بالنسبة إلى أولئك الذين يؤدي تفاعلهم إلى ظهورها. وههنا ينجلي مكمن الخطر واضحًا: إذ كيف يمكن أن تكون المعاني ذاتية وموضوعية في الوقت نفسه؟ وكيف يعرف فاعل ما Actor أنّ المعنى الذي يسبغه على شيء ما هو المعنى ذاته الذي يسبغه فاعل آخر على الشيء ذاته؟

وقد منح التفاعليون الرمزيون الأنطولوجيا نصيبًا وافرًا من الاهتمام (أي دراسة ما يعنيه **الوجود**)، في إطار اشتباكهم مع معنى المعنى The Meaning of Meaning. لكن الأنطولوجيا لم تكن كافية؛ إذ بدا أنّ الإبستيمولوجيا (أي دراسة ما تعنيه **المعرفة**) تكمن في كل نقاش يتصل بما نعتقد أننا نعرفه، وفي كل تفاعل ينتج منه المعنى. ولو استخدمنا لغة مجازية لقلنا إنّ نزعة التفاعل الرمزي انتقلت بالنظرية الاجتماعية إلى حافة جرف إبستيمولوجي، ومن على قمته لاحت خيارات ثلاثة: (1) إما التمعُّن في الجرف ثم التراجع إلى أمان الأنطولوجيا الواقعية؛ (2) وإما القفز من الهاوية وتحمّل عواقب الشك الراديكالي واليأس الوجودي؛ (3) وإما نزول الجرف باستخدام السّلّم الهش الذي يقدّمه المنعطف اللغوي في الفلسفة، وحينها ينتهي المطاف بالمرء في عالم جديد غريب من إنشائه الخاص.

وسلك شطر كبير من المنظّرين الاجتماعيين منعطف اللغة، وترتبت على ذلك مجموعة متنوعة من النتائج. واعتبر العديد من المراقبين في العلوم، ومنها العلوم الاجتماعية، أنّ العدمية ستكون النتيجة الحتمية. وحينها، صارت الواقعية حديثة Modern حداثية Modernist، وعُدّت الخيارات الأخرى "ما بعديات"، سواء أكانت ما بعد حديثة، أم ما بعد حداثية، أم ما بعد بنيوية، أم ما بعد وضعية. في مقالة "مشكلة الفاعل - البنية"، احتفى ونت بـ "جهود أنصار الواقعية العلمية الذين قلبوا تبعية الأنطولوجيا للإبستيمولوجيا في الاتجاه المعاكس"، وعدّ البنيانية "أنطولوجيا اجتماعية"[11]. لكننا، وفي مقالة "الفوضى هي ما تصنعه الدول منها"، نراه وقد وجّه سهام اللوم إلى البنائيين لإنفاقهم "جهدًا هائلًا على الأسئلة المتعلقة بالأنطولوجيا"؛ وأنهم لا بد من أن يتعلموا "الرؤية عبر دخان الإبستيمولوجيا وحرارتها"[12]. وفي السنوات الخمس ما بين مقالتَي ونت المركزيتَين، اشتعلت "النقاشات الإبستيمولوجية بين الحداثيين وما بعد الحداثيين"[13] في حقل العلاقات الدولية. وحينما لمح ونت الخطر قاب قوسين، جنح إلى الأمان الذي يقدّمه العلم الحديث.

> بالنسبة إلى ونت، يتكشّف الخطر في إنكار ما بعد الحداثة مزاعم اتّسام العلم بالموضوعية، ونقدها اعتماده على نظرية المطابقة بين الواقع والحقيقة. وأحسب أنّ الرجل ما أدرك تمامًا المدى والخطورة اللذين يطرحهما مثل هذا التحدّي، والخطر المتأتّي من نقاش الإبستيمولوجيا إلا حين قرأ كتابي عالمٌ من صنعنا، وقدّم له مراجعة عام 1991

بالنسبة إلى ونت، يتكشّف الخطر في إنكار ما بعد الحداثة مزاعم اتّسام العلم بالموضوعية، ونقدها اعتماده على نظرية المطابقة بين الواقع والحقيقة. وأحسب أنّ الرجل ما أدرك تمامًا المدى والخطورة اللذين يطرحهما مثل هذا التحدّي، والخطر المتأتّي من نقاش الإبستيمولوجيا إلا حين قرأ كتابي **عالمٌ من صنعنا**، وقدّم له مراجعة عام 1991. وكانت قدمه قد ولجت في مكمن الخطر فعلًا مثلما أعتقد؛ ولقد فعل ذلك في اللحظة التي استخدم فيها مصطلح **"معاني"** لربط مبدأَيه في البنائية. لتوضيح ذلك، اسمحوا لي بأن أشرح

9 Wendt, "Anarchy is What States Make of It," pp. 396-407.

10 Ibid., p. 403.

11 Wendt, "The Agent-Structure Problem," p. 361.

12 Ibid., p. 425.
يقول ونت: "لا يزال أمام البنائيين وأنصار الليبرالية القوية الكثير ليتعلموه بعضهم من بعض، إذا ما تمكّنوا من رؤية ما يجمعهم رغم ما تثيره الإبستيمولوجيا من سجال".

13 Wendt, "Anarchy is What States Make of It," p. 393.

كيفية تعامل بيرغر ولوكمان مع هذه الخطوة المحفوفة بالمخاطر في كتابهما، **البناء الاجتماعي للواقع**.

يمكن أن يعني الواقع أشياء كثيرة. وبالنسبة إلى مؤلفَي الكتاب، فإن الواقع المقصود هو "عالم الإدراك السائد Commonsense الذي يميّز الحياة اليومية"؛ إن المعرفة المتأتّية من الإدراك السائد "تشكل نسيج المعاني الذي من دونه لا يمكن أن يوجد مجتمع"[14]. وحالما "يُبنى المجتمع بوساطة نشاطٍ يعبّر عن معنًى ذاتي [...] يمكن حينها طرح السؤال المركزي في النظرية السوسيولوجية على النحو التالي: كيف يمكن أن تصير المعاني الذاتية وقائع موضوعية؟"[15]. والإجابة المختصرة ههنا هي أنّ الناس، بوصفهم كائنات اجتماعية، يتبادلون الإشارات (الإيماءات والرموز والكلمات) للتعبير عن "معانيهم الذاتية":

> في حالة التفاعل وجهًا لوجه، تمتلك اللغة صفةً متأصّلةً من المعاملة بالمثل تميّزها من أي نظام إشاراتٍ آخر. إذ يمكن الإنتاج المستمر للإشارات الصوتية في المحادثة أن يتزامن بدقة مع النيّات الذاتية المستمرة للمتحدثين. فأنا أتكلم على نحو ما أعتقد، وكذلك يفعل شريكي في المحادثة. ويسمع كلانا ما يقوله كلٌّ منا في اللحظة نفسها تقريبًا، ما يجعل الوصول المستمر والمتزامن والمتبادل إلى ذاتية كلٍّ منا أمرًا ممكنًا، وهو تقاربٌ بينذاتي في الوضع المباشر وجهًا لوجه لا يمكن أي نظام إشارات آخر أن يكرره. وعلاوة على ذلك، فأنا أسمع **نفسي** بينما أتحدث؛ حيث صارت معاني الذاتية متاحة لي بصورة موضوعية ومستمرة وصارت، **بحكم الواقع**، "أكثر واقعية" بالنسبة إليّ[16].

لا بدّ لي من أن أشير إلى ثلاث مسائل يتضمّنها هذا المقطع اللافت للانتباه. أولاها أنّ تركيزه منصبّ على الحياة اليومية؛ وثانيتها أنه يعدُّ الكلام حاسمًا في منح الظواهر الذاتية معنًى موضوعيًّا؛ وثالثتها أنه ينصّ على أن المحادثة تقتضي "تقاربًا بين الذوات". فالعمليّة تجري على نحو أفضل حين تكون ذاتيتا الطرفَين قريبتين بدرجةٍ كافية من رؤية إيماءات إحداهما للأخرى، وتسجيل نبرة الصوت، وتأويل لحظات التردد والصمت، وطلب التوضيحات، وما إلى ذلك. لكنّ القرب المادي لا يشكل الانشغال الرئيس لدى بيرغر ولوكمان وهما يستخدمان مصطلح "البينذاتية"؛ إذ نقرأ لهما النص التالي: "بالنسبة إليّ، أرى واقع الحياة اليومية على أنه عالم بينذاتي أتشاركه مع آخرين. وهذه البينذاتية تقيم تمييزًا حادًّا ما بين الحياة اليومية والحقائق الأخرى التي أعيها"[17]. إن البينذاتية ههنا هي "تشارُكٌ"، و"عالمٌ"، وليست محض وصفٍ موضوعي لشخصَين أحدهما على مقربة من الآخر.

في رأيي الخاص، لجأ المؤلفان هنا إلى فكرة حدوث تحوُّل مضمر في المعاني؛ حيث يصير التبادل بين الذوات وضعًا ذاتيًا مشتركًا. أما عن كيفية حدوث ذلك، فلا يقدم المؤلفان شرحًا؛ لأنّ ذلك (وهذا في رأيي الخاص أيضًا) لا يحدث. فنحن حين "نتشارك" المعاني، عبر اللغة بصورة رئيسة، فإننا نثق بوجود إدراك عامّ لما (نعتقد) أننا نعنيه، ينتقل عبر ما نقوله نحن (والآخرون)، وما قلناه في السابق، وما سنستمر في قوله.

هذا هو حالنا في الغالب ونحن نتعامل في خضمّ شؤوننا المشتركة في الحياة اليومية، مثلما يشير بيرغر ولوكمان على الأقل؛ إذ كلما قلَّت "معرفتنا" بشركائنا في الكلام، زادت احتمالية إسباغنا معانيَ متباينة لما يُقال. ويزيد التباين بزيادة عدد الناس ودرجة قربهم منّا. ويزيد أيضًا حين يقدَّم الكلام في شكل مكتوب، أو حين يُترجَم من لغة إلى أخرى. بل إن اللغة نفسها متعددة المعاني؛ إذ تتكاثر الاستعارات في كل لغة، وتتيح كل لغة العديد من المعاني المتداخلة أو غير المتسقة لما نقوله.

لم يكن بيرغر ولوكمان وحدهما، من بين علماء التفاعل الرمزي، ممّن تناولوا البينذاتية. ثمة مصدر أساس يمثله عالم الفينومينولوجيا إدموند هوسرل، وقد أطلق عليها عبارة "حالة ما قبل الإخبار" Pre-Predicative Condition. يعتمد الإخبار على اللغة، لأن إمكانية معرفة ما نتشاركه من دون اللجوء إليها هو أمر يتجاوزني (مثلما ذكرتُ في كتابي)[18]. وحتى نكون منصفين، فإنّ بيرغر ولوكمان أدركا أن الكلام هو الوسيط الذي يصير من خلاله مفعول البينذاتية نافذًا، لكنهما فشلا في إدراك أن الكلام يمدّ مفهوم البينذاتية بمعانٍ متعددةٍ سمتُها عدم التوافق.

لا يسعني إلّا أن أستنتج أن **البينذاتية** هي حشوٌ فضفاض مراوغ مخادع (واسمحوا لي بأن أستخدم هذه الاستعارات العاميّة الإنكليزية[19]). فالمعاني لا يمكن تحديدها ولا إقرارها بصورة نهائية؛ ولا يمكن ضبط معنى المعاني، والذاتية سيدة الموقف. ومثلما يفترض بيرغر ولوكمان، ثمّة العديد من صنوف الواقع التي يعيها كلٌّ منّا، وهي مختلفة متباينة حتى ونحن نعدُّها متشابهة. وخلاصة القول إنّ ونت، وهو يغرف من التفاعل الرمزي معلنًا عن مبدأيه في البنائية، ولج في متاهة مفهومية ليس لها منفذ.

---

14 Peter Berger & Thomas Luckmann, *The Social Construction of Reality: A Treatise in the Sociology of Knowledge* (London: Penguin Books, 1967), p. 27.

15 Ibid., p. 30.

16 Berger & Luckmann, p. 52. (التشديد في الأصل)

17 Ibid., p. 37.

18 شرحتُ ذلك في كتابي. ينظر:
Nicholas Onuf, *The Mightie Frame: Epochal Change and the Modern World* (New York: Oxford University Press, 2018), pp. 137-143.

19 استعمل أونوف في النص الأصلي عبارة a weasel word، واعتذر قائلًا: "لا يمكنني التأكد من إمكانية ترجمة هذه الاستعارة العامية إلى اللغة العربية". (المحرر)

في مقالة "مشكلة الفاعل-البنية"، وضع ونـت[20] "الضرورات الموضوعية" في مقابل "المصالح الذاتية"؛ لكنه فعل ذلك بطريقة عابرة، من دون أن يأتي على ذكر البينذاتية. وفي مقالة "الفوضى هي ما تفعله الدول منها"، أشار إليها مرات قليلة، إحداها حين قرَن بينها وبين "المعاني" في قوله: "عملية إرسال الإشارات والتأويل والاستجابة هذه تستكمل 'فعلًا اجتماعيًا' وتشرع في عملية خلق معانٍ بينذاتية"[21]. وتبدو ههنا إفادته من برغر ولوكمان واضحةً جلية؛ على النحو الذي توضحه بقية الفقرة. ثم إنه، في موضع آخر من المقالة نفسها، فضّل استخدام عبارات مثل "المعاني الجماعية"[22] و"المعرفة الجماعية"[23]. لكنه لم يوضح في أيّ وقت من الأوقات ما كان يقصده بـ**المعاني** أو **البينذاتية**. بل ناقش **الهوية** معظم الوقت، ومنها "الهويات الجماعية" و"هويات الدولة". لقد عدَّ على الدوام أنّ التجسّد الموضوعي للذاتية عملية معطاة.

بعد ذلك بعامين، في مقالة مهمة أخرى، نجد ونت قد استخدم اللغة نفسها؛ يقول: "الهويات **الاجتماعية** هي مجموعات من المعاني التي ينسبها الفاعل إلى نفسه وهو يتخذ منظور الآخرين، أي بوصفه موضوعًا اجتماعيًا"؛ "تمنح البنى البينذاتية معنًى للبنى المادية، وبحسب المعاني يتصرف الفاعلون"؛ "يتشكل العالم الاجتماعي عبر المعاني والدلالات المتشارَكة، والتي يمكن التلاعب بها من خلال الممارسات الخطابية"[24]. إن مصطلح **الهوية** وحده حظي بالتعريف الدقيق من ونت، حيث يقول: "تمتلك الهويات الاجتماعية خصائص بنيانية فردية واجتماعية، وهي خرائط إدراكية في الوقت نفسه تمكّن الفاعل من تحديد 'من أنا/ نحن' في موقفٍ ومواقع داخل بنية قوامها أدوار اجتماعية تستند إلى فهومٍ وتوقعاتٍ متشاركة"[25]. أما كيفية التنقل من الـ "أنا" إلى الـ "نحن"، ومن "بنية الدور" إلى "الفهوم والتوقعات المتشاركة"، فلا يجري تفسيرها.

ثم جاء التوضيح في صفحات كتاب ونت الموسَّع، **نظرية اجتماعية للسياسة الدولية** *Social Theory of International Politics*، حيث وردت إحالته على البينذاتية في عجالة سريعة؛ وذلك في قوله: "أعتقد أن المعرفة المتشاركة تعادل تلك 'الفهوم البينذاتية' التي يفضلها البنائيون"[26]؛ أما مشكلة الانتقال من عددٍ من الفهوم الذاتية إلى المعرفة العامة فقد أزيحت جانبًا وببساطة. ولم يواجه ونت المشكلة مباشرة إلّا في محاولته تحديد معنى كلمة "معنى" أخيرًا؛ ذلك أن "النظريات المرجعية"، ومعها نظرية ونت نفسه، "تمنح أهميةً للكيفية التي يتحدَّد بها معنى مصطلحاتٍ من مثل 'كلب' أو 'دولة'"[27].

ربما اعتقد المرء أن مثال **الكلب** سيكون الحالة الأسهل. ويؤول بنا النقاش الموسّع الذي يقدّمه ونت إلى استنتاجَين لا يمكن التوفيق بينهما: الكلاب هي كلاب لأننا نقول ذلك، أو الكلاب تشكّل نوعًا طبيعيًا من الأشياء في العالم. في الحالة الأولى، يرتبط ما نعنيه عندما نقول "كلب" بالسياق على الدوام، والسياق ليس ثابتًا البتّة. وفي الثانية، يتطابق المعنى والحقيقة في نهاية المطاف حالما نتخلص من أخطاء التصنيف (فإذا كانت الكلاب ثدييات مستأنَسة، فإن تسمية الكلاب البرية الأفريقية بأنها "كلاب" هي أحد هذه الأخطاء)، ومن الاستعارات المضللة (كقولنا: أنا مرهق I'm dog-tired). وهنا، يصطفّ ونت، بواقعية أيضًا، إلى جانب الأنواع الطبيعية والمعاني الحقيقية، فيقول: "لا يمكن أن تتكاثر الكلاب مع القطط بقطع النظر عن كيفية تصنيفنا لها. وهو ما يخبرنا شيئًا عن طبيعتها"[28].

أما معنى State فأكثر إشكالية. فاللغويون يميزون بين "الأسماء المعدودة" Count Nouns و"الأسماء غير المعدودة" Mass Nouns. إنّ الكلب هو اسم معدود وهو ما يجعل مثال الكلاب الحالة الأسهل (نسبيًا) في تحديد المعاني؛ إذ يمكننا أن نقرر ما إذا كان أي كلبٍ مفترضٍ يُعدُّ كلبًا (أي إنه ينتمي إلى النوع الذي نطلق عليه "كلاب")، ثم يمكننا بعد ذلك تحديد أي نوع من الكلاب هو. أما **الشَّعر** و**الشعب** والحالة State (كما في **الحالة الراهنة** State of affairs) فهي أسماء غير معدودة نماذجية؛ بحيث إننا نتعامل معها بوصفها كلّيات. وتسير **الدولة** State (كما في الكيان الترابي ذي السيادة) و**الأمة** في الاتجاهين اعتمادًا على السياق. أما كلمة **شعب** فقد تحولت في الآونة الأخيرة إلى اسم معدود؛ كما في عبارة: "نحن شعوب الأمم المتحدة"، الواردة في ديباجة ميثاق الأمم المتحدة الذي صيغ عام 1945. و**السيادة** اسم غير معدود مثلما يبدو واضحًا جدًا.

أما كلمة **معنى** فهي في حدّ ذاتها لغزٌ محيّر: بالنسبة إلى الواقعيين، على الأقل، "المعنى" بصيغة المفرد هو اسم غير معدود له معنًى حقيقي واحد؛ وفي صيغة الجمع هو عالم من الأنواع المحدَّدة والمعاني

20 Wendt, "The Agent-Structure Problem," p. 359.

21 Wendt, "Anarchy is What States Make of It," p. 405.

22 Ibid., pp. 397-407.

23 Ibid., p. 399.

24 Alexender Wendt, "Collective Identity Formation and the International State," *American Political Science Review*, vol. 88, no. 2 (1994), pp. 385, 389, 391.

25 Ibid., p. 385.

26 Alexender Wendt, *Social Theory of International Politics* (Cambridge: Cambridge University Press, 1999), p. 160.

27 Ibid., p. 53.

28 Ibid., p. 60.

التي توافقها. أما بالنسبة إلى ما بعد الحداثي المناهض للواقعية مثلي، فإن كلمة "معنى" بوصفها اسمًا غير معدود ليست متجانسةً؛ والأنواع مؤقتة على الدوام، والمعاني محلّ مشاحّة دومًا. أنا أفترض أن **السيادة** (بوصفها اسمًا غير معدود) فريدة من نوعها ولا تخضع للمقارنة ضمن النوع الذي تنتمي إليه، وليست لها هوية جاهزة؛ وتكتنفها ظلال كثيرة من المعنى، إلى حدّ أنّه لا أحد منّا يجزم على وجه الدقة بما نعنيه عندما نستخدم هذا المصطلح. وهذه هي في الغالب حال الأسماء غير المعدودة التي فقدت خصوصيتها المرجعية الملموسة. فإذا كنا نظن أننا نرى "الشَّعر" على حقيقته، فنحن لا نشعر بمثل هذا التصور حين نسمع كلمة "سيادة"؛ ولذلك، ما زلنا مستمرين في الكتابة عن معناها.

> إنّ ما فعله ونت في مقالة "الفوضى هي ما تصنعه الدول منها" هو التالي: لقد خصّ "مؤسسة" السيادة بنقاش طويل ومسهب، وهو أمر يتطلّب النظر المسبق للمؤسسة بوصفها مفهومًا متعدد الأشكال في حقل العلاقات الدولية. وهذا عمل لا تعرف له نهاية؛ والسبب الدقيق ههنا هو أنّ اللغة تظل مهمة جدًا في هذا الصدد

إنّ ما فعله ونت في مقالة "الفوضى هي ما تصنعه الدول منها" هو التالي: لقد خصّ "مؤسسة" السيادة بنقاش طويل ومسهب[29]، وهو أمر يتطلّب النظر المسبق للمؤسسة بوصفها مفهومًا متعدد الأشكال في حقل العلاقات الدولية. وهذا عمل لا تعرف له نهاية؛ والسبب الدقيق ههنا هو أنّ اللغة تظل مهمة جدًا في هذا الصدد. لكن ونت لم يبدُ على استعداد لمنحها ما تستحقه من أهمية: فالفاعلون لديه لا يتكلمون، والمحادثة لا تتيح البتّة مجالًا لإنشاءٍ مشتركٍ للمعنى؛ إنه يجادل بإسهاب في هذا وذاك، لكن الناس لا يفعلون ذلك. فلا يستطيع ونت أن يخبرنا كيف يجعل الناس (بصورة ذاتية) العالم على النحو الذي يعتقدونه (بصورة موضوعية). لذلك، فمفهوم البينذاتية هنا لا مفعول له، ولا أحسب أن ونت فكّر فيه يومًا على الرغم من إعلانه أنه يتبنى خيار التفاعلية الرمزية.

ربما كان في وسع ونت أن يجد ضالّته في التحوّل نحو اللغة، غير أنّ هذا المنعطف محفوف بالمخاطر. وبدلًا من ذلك، تشبّث بالأنطولوجيا الواقعية التي ترى أن اللغة تتعلق بالتمثّلات لا بالأداء؛ أي لا تتدخّل مباشرة في البناء الاجتماعي. وفي مثل هذا الخيار، يتحوّل **المعنى** إلى اسم معدود. وقد نلاحظ بعض هذا الموقف لدى ونت لو أعدنا استذكار مقالة "الفوضى هي ما تصنعه الدول منها" مرة أخرى، لكنه لن يكون واضحًا تمامًا؛ لأنّ الرجل صنّف فيه البنيانية والتفاعل الرمزي ضمن التقاليد "الحداثية" أسوةً بتصنيفه لنفسه أيضًا[30]. وإنّه لَادّعاء خادع، إذ يمكن علماء ما بعد الحداثة أن يستعينوا بالبنيانية (مثلما فعلتُ أنا في كتابي)؛ كما أنّ التفاعل الرمزي صالح في الاتجاهين (مثلما أوضحتُ من قبلُ). ثم إنّ ولاءاته في كتابه قد انجلت بوضوح حين اختار السلامة أولًا.

تمثّل مقالة "الفوضى هي ما تصنعه الدول منها" علامة فارقة، في مسار الحركة البنائية في العلاقات الدولية، بل في الحقل برمّته؛ إذ إنها تُعدّ أكثر دراسة في دورية استُشهد بها في تاريخ الحقل (أكثر من 10000 مرة، وهو ما يمثّل، وفقًا لمحرك غوغل الأكاديمي Google Scholar، ثلاثة أضعاف عدد مرات الاستشهاد الخاصة بمقالة "مشكلة الفاعل - البنية"). بل يمكنني أن أشهد شخصيًا على التأثير المباشر الذي أحدثته مقالة ونت المنشورة عام 1992؛ إذ إنها أسهمت في تقديم البنائية إلى العديد من الباحثين أكثر مما فعل كتاب **عالم من صنعنا** على الإطلاق. وانتهى نشرُ المقالة في أكثر دوريةٍ رائدة في هذا الحقل، وفي توقيت حاسم، إلى إضفاء الشرعية على الحركة البنائية ومنحها زخمًا. وبعد فترة وجيزة، انضمت البنائية إلى الواقعية والليبرالية بوصفها تشكل معًا الركائز الثلاث في نظرية العلاقات الدولية[31]، وعزز كتاب ونت المنشور عام 1999 تحوُّل البنائية من حركة هامشية إلى سمة مميزة للحقل، اليوم وفي المستقبل المنظور.

كيف نفسر هذا النصر العلمي المظفَّر؟ إذ إن ونت، عام 1992، لم يكن باحثًا كبيرًا يحظى بمثل المنزلة المرموقة التي بلغها اليوم ولا العدد الكبير من المتابعين. كما أن المقالة ليست سهلة بالنسبة إلى المبتدئين أو الأكاديميين الذين ليست الإنكليزية لغتهم الأولى. علاوة على ذلك، نادرًا ما تُستحضر المبادئ الأساسية في بنائية ونت، والتي أعاد الاشتغال بها في مقالة أخرى لتصير ثلاثة "افتراضات أساسية"[32]. ويكمن "مفتاح الجواب" المتاح هنا في أنّ التوقيت كان له الدور الأكبر؛ إذ غيّرت نهاية الحرب الباردة كل شيء، فقفزت البنائية من

29 Wendt, "Anarchy is What States Make of It," pp. 412-415.

30 Ibid., p. 394.

31 Stephen M. Walt, "International Relations: One World, Many Theories," *Foreign Policy*, no. 110 (1998), p. 38.

32 Wendt, "Collective Identity Formation and the International State," p. 385.

الظل حين أدرك الباحثون الشباب على وجه خاص أنّ الواقعية فشلت في توقّع نهاية النظام القديم، وأن الليبرالية قدّمت للمستقبل رؤية هزيلة. لقد منحت البنائية الاجتماعية وعدًا بطريقة أفضل للنظر إلى سياسة القوة Power Politics، وهذا بالضبط ما وعد به ونت في العنوان الفرعي لمقالته الصادرة عام 1992.

يمكن إضافة الكثير في هذا الصدد أيضًا. ومثلما ذكرت آنفًا، فإنّ مقالة "الفوضى هي ما تصنعه الدول منها" هي حافة جرفٍ هارٍ يسير بجمهوره من الباحثين الشباب إلى حافة منحدر إبستيمولوجي ثم يتراجع قافلًا. لطالما عدّ معظم الواقعيين النقاشات الإبستيمولوجية سخيفةً ومشتّتةً للانتباه[33]. وربما اعتقدنا أنّ ونت كان يستهدف الواقعية حين صاغ أحد الأقسام الفرعية في مقالته بعنوان "الفوضى وسياسة القوة" Anarchy and Power Politics[34]. ليس الأمر كذلك! بل إنّ ونت في هذا القسم يمهد الأرضية لنقاش "التحول المؤسسي لسياسة القوة" Institutional Transformation of Power Politics في القسم الفرعي الذي يليه مباشرة[35]. وهكذا استبقت الواقعيةُ الليبراليةَ التي تلَتها مباشرة. وأرى أنّ جمهور ونت المستهدف كان يتألف من باحثين شباب ذوي ميول ليبرالية مثله؛ وهو الجيل الجديد الذي صقلَتْه الأحداث لا النقاشات.

ربما يستذكر القرّاء مقطعًا من مقالة ونت اقتبستُه آنفًا يقول: "هدفي في هذه الدراسة هو بناء جسر [...] امتدادًا **للادعاء الليبرالي** القائل إن المؤسسات الدولية يمكنها تحويل هويات الدولة ومصالحها"[36]. وهكذا يسير بنا هذا الجسر، ويسير بالبنائية، إلى عالم جديد يمكن أن يعتنقه الليبراليون أخيرًا. سأقدّم دليلًا آخر دقيقًا إلى حدٍّ ما على أنّ هدف ونت كان إعادة بناء التنظير الليبرالي؛ إذ يخبرنا عنوان مقالته الشهيرة أن الفوضى هي ما **تصنعه** الدول (أي فاعلو الدول) منها What States Make of it، ولا يقول إن الفوضى هي ما **تصنعه** الدول What States Make It.

وفي اللغة الإنكليزية، الصُّنع Making هو بناء؛ فيكون البناء الاجتماعي صنعًا للعالم World-making. وحين أستخدم سؤال: ما الذي **نصنعه**، أنا أو شخص آخر أو نحن، من ما **صنعناه** كلّنا معًا (أو سنصنعه أو ينبغي أن نصنعه)، فقد نقلتُ مفردات الخطاب من ما **تفعله** Do الكلمات إلى ما **تقوله** Say الكلمات بشأن ما **نفعله** Do نحن. يحب الليبراليون في مجال العلاقات الدولية حديث الأفكار؛ لأن الأفكار تمكّنهم من دمج شواغلهم المعيارية فيها. لذلك، فَلْتنتقل الأفكار الراديكالية عن صنع العالم World-making إلى الأطراف حيث كانت طوال الوقت؛ ويمكن أن يمضيَ **غُلاة** ما بعد الحداثة قُدمًا والزهو على حافة الجرف الإبستيمولوجي حيث ينتمون؛ ولْتمتلئ صفحات الدوريات العلمية والكتب بسجالات لا تنتهي عن الهوية والمعايير.

بذلك، أفسح ونت لليبرالية مكانًا في حقل العلاقات الدولية، فأحال هذا الحقل مكانًا آمنًا للباحثين الليبراليين. وإنه لَإنجاز رائع بالكلّية. وإذا ما اتفقنا على أن ونت لم يكن بمفرده في التمكين لهذا الإنجاز، فلن يكون يسيرًا أن نتخيل إمكانية حدوث ذلك كله لولا الدفعة التي أنجزتها مقالة "الفوضى هي ما تصنعه الدول منها". وهذا لعمري ممّا **يُعدّ** بحقّ صُنعًا للعالم World-making.

---

33 لمزيد من الاطلاع، ينظر:
Robert G. Gilpin, "The Richness of the Tradition of Political Realism," *International Organization*, vol. 38, no. 2 (1984), pp. 287-304.

34 ينظر القسم الفرعي في مقالة ونت بهذا العنوان في:
Wendt, "Anarchy is What States Make of It," pp. 395-410.

35 Ibid., pp. 410-422.

36 Wendt, "Anarchy is What States Make of It," p. 394.

المراجع

Berger, Peter & Thomas Luckmann. *The Social Construction of Reality: A Treatise in the Sociology of Knowledge*. London: Penguin Books, 1967.

Gilpin, Robert G. "The Richness of the Tradition of Political Realism." *International Organization*. vol. 38, no. 2 (1984).

Keohane, Robert O. "International Institutions: Two Approaches." *International Studies Quarterly*. vol. 32, no. 4 (1988).

Onuf, Nicholas Greenwood. *World of Our Making: Rules and Rule in Social Theory and International Relations*. Columbia: University of South Carolina Press, 1989.

Onuf, Nicholas. *The Mightie Frame: Epochal Change and the Modern World*. New York: Oxford University Press, 2018.

Walt, Stephen M. "International Relations: One World, Many Theories." *Foreign Policy*. no. 110 (1998).

Wendt, Alexander E. "The Agent-Structure Problem in International Relations Theory." *International Organization*. vol. 41, no. 3 (1987).

_____. "Anarchy Is What States Make of It: The Social Construction of Power Politics." *International Organization*. vol. 46, no. 2 (1992).

_____. "Collective Identity Formation and the International State." *American Political Science Review*. vol. 88, no. 2 (1994).

_____. *Social Theory of International Politics*. Cambridge: Cambridge University Press, 1999.